الهمز وملامح من خصائصه الصوتية في آيات من القرآن الكريم

د. أحمد محمد سالم الزوي(*)

مقدمة

لما كانت عناية علمائنا بالأصوات كبيرة لذلك فإن ظاهرة الهمز في اللغة العربية نالت منهم عناية كبيرة، لما لهذه الظاهرة من ارتباط كبير بالنطق الصحيح لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته.

وقد ظهرت لهم مؤلفات مستقلة في الهمز من ذلك على سبيل المثال: كتاب الهمز لعبد الله ابن أبي إسحق الحضرمي (ت 117 هـ).

والهمزة من أهم المشكلات التي ينبغي أن تعالج علاجا علميا، فهي صوت فريد بين أصوات اللغة العربية، بل بين أصوات مجموعات كثيرة من اللغات المعروفة الآن.

وقد احتفت اللغة العربية بهذا الصوت، وبدا من معاملة القدماء له رسما، وإثباتا وحذفا، وإبدالا، وقلبا، إحساسهم بأهميته الخاصة في بناء الكلمة العربية، وتباين أيضا موقف القبائل العربية منه في نطقهم له إثباتا وحذفا، وتسهيلا[1].

وقد نالت ظاهرة الهمز من علماء أوائل القرن الثالث الهجري في دراساتهم اللغوية للقرآن الكريم حظا كبيرا من العناية، فعالجوا قضاياها من خلال القراءات، ولغات

(*) جامعة السابع من ابريل ـ كلية الآداب زوارة، قسم اللغة العربية، زوارة ـ ليبيا.

(1) ينظر: المزهر في علوم اللغة 398/2.

القبائل في تحقيق الهمز وتسهيله، وإن كانوا قد وقفوا موقف الناقد لبعض القراءات بالهمز كما سيأتي مفصلا.

وسوف أدرس هذا الموضوع عند أبي عبيدة، والأخفش، والفراء، ومستعينا بآراء بعض العلماء الآخرين في هذه الدراسة.

1- الهمز في اللغة

الهمز في اللغة يعني الشدة والقوة، فقد ذكر الفيروزآبادي: أنه «الغَمْز والضّغط والنخس، والدفع، والضرب، والكسر»[1].

وذكر ابن منظور: «أنها سميت الهمزة؛ لأنها تُهمز فَتُهَت فتنهمز عن مَخْرجها، يقال: هو يَهُت هتّا إذا تكلم بالهمز»[2]. فالمعاني السابقة تدل على شدتها وصعوبتها.

2- مخرج الهمزة

الهمزة صوت صعب في مخرجه، وقد نص سيبويه على ذلك فقال: «إنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا[3].

ويرى علماء اللغة المحدثون أن صوت «الهمزة ينتج من انطباق الوترين الصوتيين الغشائيين والغضروفيين الهرميين في الحنجرة انطباقا كاملا وشديدا، بحيث لا يسمح للهواء بالمرور مطلقا، فينحبس داخل الحنجرة، ثم يسمح له بالدخول على صورة انفجار»[4].

3- مصطلح الهمز

من خلال استقراء آراء علمائنا نجد أنهم استخدموا مصطلح الهمز أثناء معالجتهم لقضايا التحقيق والتسهيل في الهمزة.

(1) القاموس المحيط (همز).
(2) لسان العرب (همز).
(3) الكتاب 3/ 548 وينظر 4/ 433.
(4) ظاهرة الإعلال والإبدال في العربية بين القدماء والمحدثين ص48.

فأبو عبيدة يستخدم عبارة (من همز ومن لم يهمز)، أو عبارة أخرى تؤدى المعنى نفسه[1]. وكذلك استخدم الأخفش التعبير السابق، وعبر بـ (التخفيف) عن تسهيل الهمز أيضا[2]. وهو بذلك يتفق مع سيبويه في إطلاق كلمة التخفيف على هذه الظاهرة[3].

أما الفراء فإلى جانب استخدامه عبارة (بهمز وبغير همز) فإنه ذكر كلمة (النبر) وقصد بها الهمز أيضا، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ [الأنبياء: 42] قال: «مهموزة ولو تركت همز مثله في غير القرآن قلت: (يَكلَوكم) بواو ساكنة أو (يكلاكم) بألف ساكنة؛ مثل: يخشاكم، ومن جعلها واوا ساكنة قال (كلان) بالألف تترك منها النبرة»[4].

ورأينا في تعريف سيبويه لمخرج الهمزة وصعوبته أنها نبرة في الصدر، بل إننا نجد عالما مثل الخوارزمي يقول: النبرة: الهمزة التي تقطع في أواخر الأفعال والأسماء، نحو: سبأ، وقرأ، وملأ[5].

ولكن مصطلح النبر في علم اللغة الحديث يختلف عن الهمز (النبر) عند القدماء، فبينما عبر الفراء عن الهمز بالنبر، وقبله قال عيسى بن عمر: «ما آخذ من قول تَميم إلا بالنَّبر»[6]. فهو في علم اللغة الحديث يصدق على جميع الأصوات[7]. «فالنبرة عند المحدثين إشباع مقطع من المقاطع، وذلك بزيادة ارتفاعه الموسيقي أو مداه، أو شدته، وهي تقع حسب ضبط المستشرقين لها على أول مقطع طويل من الكلمة ابتداء من آخرها، باستثناء الأخير فإذا خلت من المقاطع الطويلة، وقعت النبرة على المقطع، الأول منها»[8].

وأشار الأخفش إلى ما يقرب من مفهوم النبر في علم اللغة الحديث حين قال في تعليقه

(1) ينظر: مجاز القرآن 1/ 3، 4، 149. 2/ 10، 40.
(2) ينظر: معاني القرآن للأخفش 1/ 106، 107، 145، 188.
(3) ينظر: الكتاب 3/ 548.
(4) معاني القرآن للفراء2/ 204، وينظر: 1/ 42، 124، و3/ 98، 116.
(5) مفاتيح العلوم ص66.
(6) لسان العرب (حرف الهمزة).
(7) ينظر: الأصوات اللغوية ص 169 وما بعدها.
(8) التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث ص78.

على قوله تعالى: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس: 91] «إنما مُدّت في الاستفهام ليُفْرَق بين الاستفهام والخبر، ألا ترى أنك لو قلت وأنت تستفهم: (الرجل قال كذا وكذا)، فلم تمددها صارت مثل قولك: (الرجل قال كذا وكذا). إذا أخبرت»[1].

4- تسهيل الهمز لكثرة الاستعمال

روي عن أبي عبيدة أنه قال: «تركت العرب الهمز في أربعة أشياء لكثرة الاستعمال: في الخابية، وهي من خبأت، والبرية، وهي من برأ الله الخلق، والنبي، وهو من النبأ، والذُّرية، وهي من ذرأ الله الخلق»[2].

وفكرة تسهيل الهمزة لكثرة الاستعمال أقرها علم اللغة الحديث، فالألفاظ تبلى كما تبلى النقود من كثرة التداول.

وذكر أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن) شيئا مما روي عنه فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: 14]. «هي العصا، وأصلها من نسأت بها الغنم، وهي من الهمز الذي تركت العرب الهمزة من أسمائها، ينسأ بها الغنم أي: يسوقها ... ويهمزون الفعل منها، كما تركوا همزة النبي، والبرية، والخابية، وهي من أنبأت ومن برأت وخبأت قال:

إذا دببت على المنساة من كبر ... فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وبعضهم يهمزها فيقول منسأة»[3].

وتحدث الأخفش عن ترك الهمزة لكثرة الاستعمال فقال في قوله تعالى ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: 1] "تُقرأ بالهمز وغير الهمز؛ وهما لغتان؛ تَحْذِف الهمز لكثرة استعمال هذه الكلمة»[4].

(1) معاني القرآن للأخفش 1/ 7.
(2) المزهر في علوم اللغة 2/ 252.
(3) مجاز القرآن 2/ 145.
(4) معاني القرآن للأخفش 2/ 586.

أما الفراء فقد ناقش الهمز في مواضع كثيرة من كتابه (معاني القرآن)، وعرض لتسهيل الهمز بسبب كثرة الاستعمال، فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 211] «لا تهمز في شيء من القرآن؛ لأنها لو همزت كانت (اسأل) بألف. وإنما ترك همزها في الأمر خاصة؛ لأنها كثيرة الدّور في الكلام؛ فلذلك ترك همزه»[1].

وذكر أيضا أن العرب قد تترك الهمزة لكثرة الاستعمال فهم يقولون: «تفرقوا أيادي سَبا، وأيدي سبا، قال الشاعر:

عينا ترى النَّاس إليها نَيْسَبا من صادر ووارد أيدي سَبا

يتركون همزها لكثرة ما جرى على ألسنتهم»[2].

5- الهمز واللهجات

من أهم الأسس المنهجية التي اتبعها علماؤنا أثناء بحثهم في دلالة الألفاظ والتراكيب القرآنية واللهجات، وهم ينصون على القبيلة صاحبة اللهجة المخالفة، أو لا ينصون.

قال أبو عبيدة عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16] «وبعضهم يقرؤها: (أمرنا مترفيها)[3] على تقدير أخذنا، وهي في معنى أكثرنا وآمرنا غير أنها لغة. وأمرنا: أكثرنا ترك المد معناه أمرنا، ثم قالوا: مأمورة من هذا، فإن احتج محتج فقال: هي من أمرت، فقل: كان ينبغي أن يكون آمرة ثم طولوا ثم حذفوا ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ﴾ [النساء: 119]، فلم يمدوها... وزعم يونس عن أبي عمرو أنه قال: لا يكون هذا، وقد قالت العرب: خير المال نخلة مأبورة، ومهرة مأمورة أي: كثيرة الولد، وله موضع آخر مجازه: آمرنا ونهينا في قول بعضهم، وثقله بعضهم فجعل معناه أنهم جعلوا أمراء»[4].

(1) معاني القرآن للفراء 1/ 124.

(2) معاني القرآن للفراء 2/ 358.

(3) لم يختلفوا في (أمرنا) ألا أنه روي (آمرنا) بالمد عن نافع وابن كثير، والتشديد (أمّرنا) عن أبي عمرو. ينظر: السبعة لابن مجاهد ص 379. وينظر: إعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه 1/ 366.

(4) مجاز القرآن 1/ 373.

لقد بين لنا أبو عبيدة أن أمرنا بغير مد بمعني أكثرنا لغة لقوم. ولكنه لم يحدد هؤلاء القوم، كما ناقش تعدد الدلالة في الكلمة كما رأينا. كما فرق في الدلالة بين نطق قوم لكلمة سورة مهموزة، ونطق غيرهم لها بغير همز[1].

أما الأخفش فإنه عرض للظاهرة، وأشار إلي لغات القبائل في الهمز وتركه، وقد ينص علي القبيلة أحيانا، وأحيانا يكتفي بقوله (بعضهم)، وأيضا ينعت بعض هذه اللهجات. ففي قوله تعالي: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ [البقرة: 13]. قال: «فقد قرأهما قوم مهموزتين جميعا. (وذكر أمثلة أخري)، ثم قال: وكل هذا ليس من كلام العرب إلا شاذا»[2].

ولم يكتف بالاعتراض على تلك القراءات الصحيحة، بل بدأ في وضع قاعدة على الهمزة قال فيها: «ولكن إذا اجتمعت همزتان من كلمتين شتّى؛ ليس بينهما شيء، فإن إحديهما تُخَفَّف في جميع كلام العرب إلا في هذه اللغة الشاذة القليلة»[3]. وينص علي القبائل التي لا تهمز، والأخرى التي تهمز فيقول: «أما قوله تعالى: ﴿تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48] فهو مثل قولك: (لا تَجْزي عنك شاة ولا يَجزى عنك درهم)، (وجزى عنك درهم وجزت عنك شاة)، فهذه لغة أهل الحجاز؛ لا يهمزون. وبنو تميم يقولون في هذا المعنى: أَجْزَأت عنه، وتُجْزِئ عنه شاة»[4].

ونلاحظ أن الأخفش هنا بين لنا ثبات دلالة الكلمة بهمز وبغير همز، وإن تغير النطق فيها بين قبائل الحجاز وتميم. وأحيانا يذكر أن الهمز وغير الهمز لغات، دون إشارة للقبائل، وقد يربط ذلك بالدلالة وقد لا يربطه، ففي قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ﴾ [الحشر: 2] قال: «(فَجَاءهم الله) أي: جاءهم أمرُه. وقال بعضهم: (فآتاهم) أي: الله آتاهم العذاب؛ لأنك تقول: أتى هو وآتيته، كما تقول: ذهب وأذهبته»[5]. ويبدو لنا من النص السابق تغير الدلالة بسبب الهمزة أي تحويلها من الهمزة الشديدة إلى درجة وسطى بين تحقيق الهمزة وبين حذفها.

(1) ينظر: مجاز القران 1/ 3، 4، 5 .
(2) معاني القرآن للأخفش 1/ 44-45.
(3) معاني القرآن للأخفش 1/ 45.
(4) معاني القرآن للأخفش 1/ 95.
(5) معاني القرآن للأخفش 2/ 538.

وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111][1] قال الأخفش: «وقد قُرئت: (أرجه وأخاه) خفيفة بغير همز، وبها نقرأ. و﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: 51][2] وهي لغة، تقول: أرجيت. وبعض العرب يقول: أخطيت، وتوضَّيت. لا يهمزون»[3].

أما الفراء فقد جاء تحليله لظاهرة الهمز مزيجا بين مناقشة القراءات واللهجات لتوضيح الدلالة. فقد كان ينص على القبيلة صاحبة اللهجة أحيانا: ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌ﴾ [البقرة: 61].

قال:[4] أنشدني بعض بنى كلاب:

باسِلَةُ الوَقْـع سَرَابِيلُها بِيض إلى دانِئِها الظَّاهر

وفي قوله تعالى: ﴿تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ [سبأ: 14] قال: «لم يهمزها أهل الحجاز، ولا الحسن. ولعلهم أرادوا لغة قريش؛ فإنهم يتركون الهمز»[5]. وربط الفراء بين دلالة الكلمات المهموزة وغير المهموزة، وبين اللهجات. فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 7]. قال: «البرية غير مهموز، إلا أن بعض أهل الحجاز همزها...ثم اجتمعوا على ترك همزها كما اجتمعوا على: يَرَى وتَرى ونَرى، وإن أُخذت من البَرَى كانت غير مهموزة، والبرى: التراب سمعت العرب تقول: بفيه البرى، وحمّى خيبرى، وشرُّ ما يرى فإنه خيسرى»[6].

وذكر القرطبي الآية السابقة وقال في تفسيره لها: « قرأ نافع وابن ذكوان بالهمز على الأصل في الموضعين من قولهم برأ الله الخلق، وهو البارئ الخالق. وقال ﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ [الحديد: 22]

(1) وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهمز. ونافع والكسائي بغير همز. وروى عن عاصم بالهمز وبغير الهمز. ينظر: السبعة في القراءات ص 287 289- . وحجة القراءات ص289-291.

(2) وقد قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (ترجئ) مهموزة. وقرأ الباقون بغير همز. وهما لغتان. ينظر: السبعة في القراءات ص523. وحجة القراءات ص578.

(3) معاني القرآن للأخفش 1/ 434-435.

(4) ينظر: معاني القرآن للفراء 1/ 42.

(5) معاني القرآن للفراء 2/ 356.

(6) معاني القرآن للفراء 3/ 282.

والباقون بغير همز، وشدّ الياء عوضا منه، وذكر أن الفراء قال: إن أخذت البرية من البَرى وهو التراب، فأصله غير الهمز، تقول منه: براه الله يَبْرُوه بروا أي: خلقه»[1].

وقيل: إن قريشا تترك الهمزة في مثل (يكلؤكم) فيقولون (يكلوكم) وعلق على ذلك الفراء بقوله: وكل حسن[2]. فلم ينعت القراءة أو اللهجة بالشذوذ هنا.

وقد ذكر ابن منظور: أن تسهل الهمز في ذلك لهجة قريش فقال: «ومن قال يَكلاكُم قال: كَلَيت مثل: قَضَيت وهي من لغة قريش»[3]. ولقد وفق كل من الأخفش والفراء حين رأيا أن أهل الحجاز ـ ولا سيما ـ قريش لا يهمزون، فالقبائل المتحضرة من أهل الحجاز لا تحقق الهمزة، أما القبائل المجاورة للبادية فكانت تحقق الهمز.

يقول ابن يعيش: «الهمزة حرف شديد مستثقل من أقصى الحلق، إذ كان أدخل الحروف في الحلق فاستثقل النطق به، إذ كان إخراجه كالتهوع، ولذلك تركه الحجازيون، وهو نوع استحسان»[4]. وقد مر بنا في حديث سيبويه عن مخرج الهمزة صعوبة هذا المخرج وشدته، وهذا ما جعل سيبويه يرى أن أهل الحجاز لم يهمزوا في الهمزة الواحدة. حيث قال: «اعلم أن الهمزتين إذا التقتا وكانت كل واحدة منهما من كلمة، فإن أهل التحقيق يخففون إحداهما، ويستثقلون تحقيقهما... كما استثقل أهل الحجاز تحقيق الواحدة، فليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا»[5]. كما روى عن علي بن أبي طالب أنه قال: نزل القرآن بلسان قريش وليسوا بأصحاب نبر، ولولا أن جبريل نزل بالنبر ما نبرنا[6].

لذلك أصبح بالحجاز مستويان لنطق الهمزة: لغة رسمية تحققها، ولغة غير رسمية تتخلص منها، إما بحذفها أو تسهيلها أو قلبها، وجاءت القراءات القرآنية بالمستويين أيضا كما سيأتي.

(1) الجامع لأحكام القرآن 20/ 145.
(2) ينظر: معاني القرآن للفراء 2/ 204 .
(3) لسان العرب (كلأ).
(4) شرح المفصل 9/ 107.
(5) الكتاب 3/ 548-549.
(6) ينظر: شرح شافية ابن الحاجب 3/ 32.

فالتخلص من الهمزة لم يكن شائعا في كل القبائل الحجازية، بل إن القبائل التي أغرقت في البداوة كانت تحقق الهمزة[1].

6- الهمز والقراءات:

مر أن أبا عبيدة عنى كثيرا بالدلالة في ظاهرة تحقيق الهمز وتسهيله في أُمرنا وآمرنا، وربط ذلك باللهجات والقراءات في الآية، فمن قرأ (آمرنا) كان المعنى أكثرنا، ومن قرأ (أمرنا) كان المعنى أخذنا وهي في معنى أكثرنا وآمرنا.

أما الأخفش فإلى جانب عنايته بالدلالة في مثل هذه القضايا إلا أنه أيضا عنى بالناحية الصرفية، وهو يعرض للقراءات بالهمز وبغيره، مشيرا للقرّاء أحيانا، وغير مشير إليهم أحيانا أخرى. ففي قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: 111] قال الأخفش: «وقال (أَرْجِئْهُ وَأَخَاه) وقال: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ [الأحزاب: 51] لأنه من (أرجأت) وقد قُرئت: (أرجه وأخاه) خفيفة بغير همز، وبها نقرأ[2] و(تُرْجِي من تشاء)[3] وهي لغة. تقول: (أرجيت)، وبعض العرب يقول: (أخطيت) و(توضيت) لا يهمزون»[4] ويبدو هنا اختيار الأخفش للقراءة بغير الهمز.

أما الفراء فهو يدير أبحاثه حول معاني المفردات والتراكيب من خلال تعدد أوجه القراءات، وتعدد اللهجات، باحثا عن الدلالة من الناحية الوظيفية أحيانا، ومن الناحية المجمعية أحيانا أخرى. ففي قوله تعالى: ﴿إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا﴾ [النساء: 117] ذكر قراءة ابن عباس لها (أُثُنا) وعلل لها بأنها جمع (الوثن)، وضمت الواو فهمزت كما تضم الواو فتهمز في

(1) ينظر: اللهجات العربية في التراث 1/ 336.

(2) وهي قراءة نافع والكسائي (مع إشباع الهاء)، وعاصم وحمزة بسكون الهاء. ينظر: السبعة في القراءات ص 287-289. وحجة القراءات ص290.

(3) قرأ ابن كثير وأبوعمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر (ترجئ مهموزا)، وقرأ الباقون بغير همز. وهما لغتان. ينظر: السبعة في القراءات ص 523 . وحجة القراءات ص578.

(4) معاني القرآن للأخفش 1/ 334-335.

مثل: (وقتت: أقتت) من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ [المرسلات: 11][1] التي رأى فيها أنه (اجتمع القراء على همزها، وهي في قراءة عبد الله (وقتت) بالواو الخفيفة). ثم ذكر قراءة أخرى وهي (أُنْثا) وعلق عليها بقوله[2]: جمع الإناث، فيكون مثل جمع الثمار والثمر ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: 141][3].

فهو يبحث لكل قراءة سواء أكانت شاذة أم صحيحة عن دلالة معينة، تسير بقدر الإمكان مع الدلالة العامة للكلمة. ففي تفسيره وتوجيهه القراءات في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف: 38] يقول: «تهمز وتثبت فيها الياء، وأصحابنا يروون عن الأعمش (مِلَّة آبَاى إبراهيم)»[4].

وأعرض لموقف علمائنا مجتمعين من قراءات بعينها في الهمز: مع المقارنة بينهم في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: 22] بينما يذكر أبو عبيدة أنه «ربما همزها قوم فقال: (أضأزته) وأنا (أضأزه) وهي من ضزى»[5]. لا يعرض لها الأخفش في كتابه. أما الفراء فيقول: «القراء جميعا لم يَهْمِزُوا ضِيزى، ومن العرب من يقول: قِسْمة ضَيْزَى، وبعضهم يقول: قِسمة ضَأزَى، وضُؤزَى بالهمز، ولم يقرأ بها أحد نَعْلَمه»[6]. ولكن ابن كثير قرأ بالهمز (ضئزى)[7] والقراءة سنة متبعة، فمع أن ابن كثير مكي، وأهل مكة لا يهمزون، فقد حقق ابن كثير الهمزة في الوقت الذي رأى الفراء أن من يهمزون تركوا الهمزة هنا؛ لأمور لغوية تتعلق بالصيغة الصرفية لبنية الكلمة، وبالفرق بين الاسم والصفة، يوضحها قول الفراء الآتي: «وضِيزَى: فُعلى. وإن رأيت أولها مكسورا، هي مثل قولهم: بيض وعِين، كان أولها مَضموما فكرهوا أن يُترك على ضَمَّتِه،

(1) وقد قرأ أبو عمرو وحده (وقتت) بالواو وتشديد القاف. وقرأ الباقون (أقتت) بألف. ينظر: حجة القراءات ص742-743.

(2) ينظر: معاني القرآن للفراء 1/ 289. وقراءة (أثنا) في مختصر في شواذ القرآن لابن خالويه منسوبة لعطاء ص 28.

(3) وقراءة (ثمره) بضم الثاء والميم لحمزة والكسائي والباقون (ثمره) بفتح الثاء والميم. ينظر: حجة القراءات ص264.

(4) ينظر: معاني القرآن للفراء 2/ 45-46. وهي قراءة الأعمش. ينظر: مختصر في شواذ القرآن ص 63.

(5) مجاز القرآن 2/ 227.

(6) معاني القرآن للفراء 3/ 98.

(7) ينظر: السبعة في القراءات ص615. وقرأ الباقون (ضيزي) بغير همز.

فيقال: بُوض، وعون. والواحدة بيضاء، وعيناء، فكسروا أولها ليكون بالياء، ويتألف الجمع والاثنان والواحدة. كذلك كرهوا أن يقولوا: ضُوزى: فتصير واوا، وهي من الياء، وإنما قضيت على أولها بالضم؛ لأن النَّعوت للمؤنث تأتي إما: بفتح، وإما بضم: فالمفتوح: سَكرى، وعَطشى، والمضموم: الأُنثى والحُبلى؛ فإذا كان اسما ليس بنعت، كسر أوله كقوله: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الذاريات: 55] الذكرى اسم، لذلك كسرت، وليست بنعت، وكذلك (الشّعرى) كسر أولها؛ لأنها اسم، ليست بنعت. وحكى الكسائي عن عيسى: ضِيزَى»[1]. لقد ركز الفراء هنا على الربط بين نطق الكلمة، ومعناها الوظيفي، أي الفرق بين كونها اسما أو صفة.

7- الهمز والدلالة

مر سابقا اهتمام أبي عبيدة بأثر التغير في نطق الكلمة على دلالتها، وتلك نظرة جيدة منه، فالتطور الصوتي سبب في التطور الدلالي أحيانا «وثبات أصول الكلمة يساعد على ثبات معناها، وتغيرها يذلل السبيل إلى تغيره»[2]. فمجاز كلمة (سورة) عنده بغير الهمز يختلف عن مجازها بالهمز (سؤرة) قال: «والسورة من القرآن يهمزها بعضهم، وبعضهم لا يهمزها، وإنما سميت سورة في لغة من لا يهمزها؛ لأنه يجعل مجازها مجاز منزلة إلى منزلة أخرى، كمجاز سورة البناء. قال النابغة الذبياني:

ألم تـر أن الله أعطـاك سورة تَرى كل مَلك دونها يتذبْذَبُ

أي منزلة شرف، ارتفعت إليها عن منازل الملوك، غير أن جمع سورة القرآن خالف جمع سورة البناء في لغة من همز سورة القرآن، وفي لغة من لم يهمزها، قالوا جميعا في جمع سورة القرآن (سور) الواو مفتوحة... ومجاز سورة في لغة من همزها: مجاز قطعة من القرآن على حدة، وفضلة منه؛ لأنه يجعلها من قولهم: أسأرت سؤرا، أي: أبقيت وأفضلت منه فضلة»[3]. ثم فرق بين دلالة الكلمتين في هذا الموضع. فقال: «وبعض العرب يهمز سورة، ويذهب إلى

(1) معاني القرآن للفراء 3/ 98-99.
(2) ينظر: التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم ص 54.
(3) مجاز القرآن 1/ 3-5.

(أسأرت)، نقول: هذه ليست من تلك»[1]. ولقد كان لرأي أبي عبيدة هذا أثر فيما جاء بعده من دراسات، ففي جمهرة اللغة: «والسورة من القرآن كأنها درجة أو منزلة يفضى منها إلى غيرها في لغة من لم يهمز»[2].

وجاء في تفسير ابن كثير: «فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة»[3] وفي قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: 106] يقول ابن كثير: «أي ننسخها بآية أخرى (أو نُنْسِها) من النسيان (نذهب بها) ومن همزها جعلها من نؤخرها، (من التأخير)»[4].

وجاء في الجامع للقرطبي أن (نُنسِها)قرئت بالهمز على معنى التأخير، وقرئت (ننسها) بضم النون من النسيان الذي بمعنى الترك، ونقل عن الزجاج أنه قال: إن القراءة بضم النون لا يتوجه فيها معنى الترك، لا يقال أنسى بمعنى ترك، وما روى علي بن أبى طلحة عن ابن عباس (أو ننسها) قال: نتركها لا نبدلها فلا يصح، ولعل ابن عباس قال: نتركها، فلم يضبط، والذي عليه أكثر أهل اللغة والنظر أن معنى (أو ننسها) نبح لكم تركها، من نسى إذا ترك[5].

وفي قوله تعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ﴾ [المائدة: 2] قال أبو عبيدة: «ومجاز (شنئان قوم) أي بغضاء قوم... وبعضهم يقول: (شنآن قوم)[6] تقديره: أبان (أي وزنه) ولا يهمزه، وهو مصدر شنيت، وله موضع آخر معناه: شنئت حقك أقررت به، وأخرجته من عندي»[7].

وقد اكتفى الأخفش بقوله: «(الشنآن) مُتحرك مثل: (الدَّرجان) و(الميلان) وهو من شَنِئْتُه فأنا أشنؤه شنآنا»[8].

(1) مجاز القرآن 1/ 20 .
(2) جمهرة اللغة 2/ 338.
(3) تفسير ابن كثير 1/ 13.
(4) تفسير ابن كثير 1/ 234 . وقد قرأ ابن كثير وأبوعمرو (أو ننسأها) وقرأ الباقون (أو نُنسها) بضم النون. ينظر: السبعة في القراءات ص 168. وحجة القراءات ص109-110.
(5) ينظر: الجامع لأحكام القرآن 2/ 68.
(6) ذكر ابن خالويه (شنآنا) بغير همزة على أنها من كلام العرب. ينظر: إعراب القراءات السبع وعللها 1/ 141-142.
(7) مجاز القرآن 1/ 147-148.
(8) معاني القرآن للأخفش 1/ 271.

وقال الفراء وهو «لا يحملنكم بغض قوم»[1].

نلاحظ عناية أبي عبيدة بتعدد الدلالة في الكلمة الواحدة مهموزة وغير مهموزة دون تفضيل قراءة على أخرى، وهو يتعامل مع القراءات صحيحها وشاذها.

وفي قوله تعالى ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ [هود: 27][2] قال أبو عبيدة: «مهموز؛ لأنه من بدأت عن أبي عمرو، ومعناه: أول الرأيي، ومن لم يهمز جعله ظاهر الرأي من بدا يبدو»[3].

أما الأخفش فقد اختار القراءة بغير الهمز فقال: «(بادي الرأي) أي: في ظاهر الرأي، وليس بمهموز؛ لأنه من (بدا يبدو) أي: ظهر. وقال بعضهم: (بادئ الرَّأي) أي: فيما يبدأ به من الرأي»[4].

وقال الفراء: «(بادي الرَّأي) لا تهمز (بادى)؛ لأن المعنى فيما يظهر لنا ويبدو. ولو قرأت (بادئ الرأي) فهمزت تريد أول الرأي لكان صوابا»[5].

أقول: لم يحدد أبو عبيدة اختياره لإحدى القراءتين، وإن ذكر القراءة بالهمز أولا. أما الأخفش والفراء فيبدو أنهما يفضلان القراءة بغير همز، واشتركوا جميعا في أن المعنى يتغير في القراءتين: واشترط الفراء تغير المعنى للقراءة بالهمز. ولكن ابن خالويه قال في توجيه القراءتين: «(بادي الرأي) يقرأ بياء مفتوحة، وبالهمز، فالحجة لمن قرأه بالياء، أنه جعله فاعلا من بدا يبدو إذا ظهر»[6].

ويبدو أن كلا من رأي علمائنا ورأي ابن خالويه صحيح. فقد ذكر القرطبي في تفسيره «أن قوله تعالى: ﴿ بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي ظاهر الرأي، وباطنه على خلاف ذلك يقال بدا يبدو إذا ظهر ... ويقال للبرية بادية لظهورها، وبدا لي أن أفعل كذا، أي ظهر لي رأي غير الأول. وقال

(1) معاني القرآن للفراء 1/ 300 .
(2) وقد قرأ أبو عمرو وحده (بادئ) مهموزا. والباقون بغير همز. ينظر: السبعة في القراءات ص332.
(3) مجاز القرآن 1/ 287.
(4) معاني القرآن للأخفش 1/ 381.
(5) معاني القرآن للفراء 2/ 11.
(6) الحجة في القراءات السبعة ص105.

الأزهري: معناه: فيما يبدو لنا من الرأي، ويجوز أن يكون (بادئ الرأي) من بدأ يبدأ وحذف الهمزة، وحقق أبو عمرو الهمزة فقرأ: (بادئ الرأي) أي: أول الرأي، أي: اتبعوك حين ابتدأوا ينظرون، ولو أمعنوا النظر والفكر لم يتبعوك، ولا يختلف المعنى هاهنا بالهمز وترك الهمز»[1].

أما قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: 23] فقد ذكر أبوعبيدة أن معنى (هيت) هلم لك[2].

وقال الفراء في (هيت) «يقال: إنها لغة لأهل حوران سقطت إلى مكة فتكلموا بها»[3].

ونقل القرطبي عن الكسائي قوله في (هيت): «إنها لغة لأهل حوران وقعت إلى أهل الحجاز معناه تعال. قال أبو عبيد: فسألت شيخا عالما من حوران فذكر أنها لغتهم»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ﴾ [سبأ: 52] جعل أبوعبيدة من لم يهمزه من: نشت تنوش وهو التناول. ومن همزه جعله من نأشت إليه وهو من بعد المطلب[5]. ولم يرجح أحد المعنيين. لكن القرطبي نقل عن النحاس قوله: «أبو عبيدة يستبعد هذه القراءة؛ لأن التناؤش بالهمز: البعد، فكيف يكون: وأنى لهم البعد من مكان بعيد ... والقراءة جائزة حسنة، ولها وجهان في كلام العرب، ولا يتأول بها هذا المتأول البعيد، فأحد الوجهين: أن يكون الأصل غير مهموز، ثم همزت الواو؛ لأن الحركة فيها خفية، وذلك كثير في كلام العرب... والوجه الآخر ذكره أبو إسحاق قال: يكون مشتقا من النئيش وهو الحركة في إبطاء، أي: من أين لهم الحركة فيما قد بعد، يقال: نأشت الشيء أخذته من بعد، والنئيش: الشيء البطيء»[6].

ولم يعرض الأخفش لهذه الآية في كتابه، لكن الفراء ذكر أن: التناؤش بالهمز الشيء البطيء، والتناوش من غير همز: التناول، وهما متقاربان[7].

(1) الجامع لأحكام القرآن 9/ 18.
(2) ينظر: مجاز القرآن 1/ 305.
(3) معاني القرآن للفراء 2/ 40 .
(4) الجامع لأحكام القرآن 9/ 109.
(5) ينظر: مجاز القرآن 2/ 150 – 151.
(6) الجامع للأحكام القرآن 14/ 316.
(7) ينظر: معاني القرآن للفراء 2/ 265.

وأما قوله تعالى ﴿وَإِن تَلْوُۥٓاْ﴾ [النساء: 135] فقد ذكر أبو عبيدة أن (تلووا) تعني كل شيء لويته من حق أو غيره. ولم يعرض لقراءة الهمز[1].

أما الأخفش فذكر أنها من (لَوَى يَلْوِى) وذكر قول بعضهم وإن (تَلُوا) ثم قال: «فإن كانت لغة فهو لاجتماع الواوين، ولا أراها إلا لحنا؛ إلا على معنى: (الولاية)، وليس للولاية معنى ههنا إلا في قوله: (وإن تَلُوا عليهم) فطرح عليهم؛ فهو جائز»[2].

أما الفراء فكان أكثر حيطة وحذرا في تعامله مع دلالات الكلمة فيقول: «(وإن تَلْوُوا وتَلُوا) قُرئتا جميعا. ونرى الذين قالوا (تلوا) أرادوا (تلؤوا) فيهمزون الواو لانضمامها ثم يتركون الهمز فيتحول إعراب الهمز إلى اللام فتسقط الهمزة. إلا أن يكون المعنى فيها: وإن تلوا ذلك يريد: تتولوه أو تُعْرِضوا عنه أو تتركوه فهو وجه»[3].

الفراء افترض أن الكلمة مرت بمراحل في النطق: فهي كانت كما في القراءة الأولى (تلووا) ثم تطور نطقها بأن همز العرب الواو المضمومة فيها، ثم تطورت مرة ثانية بترك الهمزة ليتحول إعرابها إلى اللام فصارت تلوا، وتلك لمحة ذكية وتحليل بارع من الفراء جعله لا يقع في الخطأ الذي أوقع الأخفش فيه نفسه حين قال ولا أراها إلا لحنا فاشترط معنى معينا لهذه القراءة وظن فيها الخطأ. مع أنها قراءة حمزة وابن عامر[4].

وذكر القرطبي أن القراءة بضم اللام تفيد معنيين: الولاية والإعراض، والقراءة بواوين تفيد معنى واحدا وهو الإعراض. ثم قال: وزعم بعض النحويين أن من قرأ (تلوا) فقد لحن؛ لأنه لا معنى للولاية ههنا. (وقد يكون قاصدا بذلك الأخفش). ثم ذكر رأى النحاس في أن (تلوا) هي (تلووا) ولكن استثقلت الضمة على الواو وبعدها واو أخرى فألقيت الحركة على

(1) ينظر: مجاز القرآن 1/ 141.

(2) معاني القرآن للأخفش 1/ 268.

(3) معاني القرآن للفراء 1/ 291.

(4) قرأ ابن كثير ونافع وأبوعمرو وعاصم والكسائي (تلووا) بواوين، الأولى: مضمومة، والثانية: ساكنة. وقرأ حمزة وابن عامر (وإن تلوا) بواو واحدة واللام مضمومة. ينظر السبعة في القراءات ص 229. وإعراب القراءات السبع وعللها 1/ 138. وحجة القراءات ص215.

اللام وحذفت إحدى الواوين لالتقاء الساكنين. ثم ذكر رأى الزجاج في أن المعنى على قراءته (وان تلووا) ثم همز الواو الأولى فصارت (تلؤوا) ثم خففت الهمزة بإلقاء حركتها على اللام فصارت (تلوا) وأصلها (تلووا). فتتفق القراءتان على هذا التقدير[1].

وهذا يسير مع أحد الوجهين اللذين ذكرهما الفراء، وأميل إلى هذا الرأي، لأنه يسير مع قوانين التطور الصوتي في الألفاظ العربية، فكلمة (تلووا) بها متماثلان والعربية تميل إلى التخلي عن أحد المتماثلين ويثقل فيها النطق بالضمة على الواو وبعدها واو أخرى، فحدث هذا التغير في نطق الكلمة.

وفي ختام هذا البحث نستنتج الآتي:

1. بيّن علماؤنا أسباب الاستثقال في نطق بعض الكلمات بسبب تقارب مخارج حروفها كاستثقالهم الضم والكسر، مما يعد بداية لما قعده العلماء اللاحقون في شروط الفصاحة في الكلمة.
2. شعروا بالأهمية الخاصة للهمزة في بناء الكلمة العربية، فوقفوا كثيرا أمام قضايا تحقيق الهمز وتسهيله في كلمات القرآن الكريم.
3. ظهر مصطلح الهمز واضحا عند العلماء الثلاثة، وعبر عنه الفراء أحيانا بالنبر، وتباينت تعبيراتهم عن ظاهرة (تسهيل الهمز وتحقيقه) فكان من عبارات أبى عبيدة والفراء عنه (من يهمز ومن لا يهمز) وعبر عنه الأخفش بالتخفيف كسيبويه.
4. بين علماؤنا أسبابا لتسهيل الهمز منها كثرة الاستعمال، والثقل في النطق.
5. أشاروا إلى أن أهل الحجاز يسهلون الهمز، وأهل تميم يحققونه، وإذا كان الفراء قد أشار في بعض المواضع إلى تحقيق بعض أهل الحجاز للهمز فإن ذلك يمكن إرجاعه إلى أنه لم تكن كل القبائل الحجازية تسهل الهمز فقد كانت بعض القبائل البدوية في الحجاز تحقق الهمز.

(1) ينظر: الجامع للأحكام القرآن 5/ 165-166.

6. نص علماؤنا على ما يحدثه النطق بتحقيق الهمز أحيانا وبتسهيله أحيانا أخرى في الكلمة الواحدة من تغير في دلالة هذه الكلمة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية قالون عن نافع.

[1] الأصوات اللغوية، لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو، القاهرة، الطبعة الأولى 1990م.

[2] إعراب القراءات السبع وعللها، لأبي عبد الله الحسين أحمد بن خالويه، تحقيق: الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة الأولى 1992م.

[3] التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، للدكتور الطيب البكوش، مؤسسات عبد الكريم عبد الله، تونس، 1973م.

[4] التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة، للدكتور عودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، الأردن 1985م

[5] تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تصحيح: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، بدون تأريخ.

[6] الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، دار الكتاب العربي. بدون تأريخ.

[7] الحجة في القراءات السبع، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1999م.

[8] حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، منشورات جامعة بنغازي، الطبعة الأولى 1974م.

[9] شرح شافية ابن الحاجب، لرضي الدين محمد بن الحسن الاستراباذي، تحقيق: محمد نور الحسن وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، بدون تأريخ.

[10] شرح المفصل، لموفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، مكتبة المتنبي، القاهرة، بدون تأريخ.

[11] ظاهرة الإعلال والإبدال في العربية بين القدماء والمحدثين، الدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، بحث منشور بمجلة مجمع اللغة العربية ج 48 1981م.

[12] القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، إعداد وتقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1997م.

[13] الكتاب، لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، دار القلم 1966، والهيئة المصرية العامة للكتاب 1975م.

[14] كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد، تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، بدون تأريخ.

[15] لسان العرب، لابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، الطبعة الثالثة، بدون تأريخ.

[16] اللهجات العربية في التراث، للدكتور أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب 1983م.

[17] مجاز القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى، علق عليه: الدكتور محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة. بدون تأريخ.

[18] مختصر في شواذ القرآن، لأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن خالويه، عني بنشره: ج. برجشتراسر، المطبعة الرحمانية بمصر 1934م.

[19] المزهر في علوم اللغة، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أحمد جاد المولى وآخرين، مكتبة دار التراث القاهرة، الطبعة الثالثة، بدون تأريخ.

[20] معاني القرآن، لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء، تحقيق: علي النجدي ناصف وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى 1955.

[21] معاني القرآن، للأخفش سعيد بن مسعدة، تحقيق: هدى محمود قراعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى 1990م.

[22] مفاتيح العلوم، للخوارزمي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان، الطبعة الأولى 1984م.